الصفة الثانية

وردت في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾

الصفة الثانية:

وردت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾

أولاً: المعنى اللغوي لصفة: (اليُتْم):

اليُتم: فقدان الأب.

قال ابن فارس: «الياء والتاء والميم: يقال: اليُتم في الناس من قبل الأب، وفي سائر الحيوان من جهة الأم، ويقولون لكل منفرد: يَتيم، حتى قالوا: بيتٌ من الشعر يتيم»(١).

وبعض اللغويين ذكروا قيد البلوغ، فقال الفيروز آبادي في البصائر: «واليُتْمُ بالضم، واليَتَمُ بالتحريك: فِقدان الأبِ، يَتَمَ يَيْتِمُ... وهو يتيمٌ ويتَمانٌ ما لم يبلغ الحلم»(٢).

وقال الأزهري وابن منظور: «قال الليث: اليَتيمُ: الذي مات أبوه، فهو يتيمٌ حتى يَبْلُغَ فإذا بَلَغَ زال عنه اسم اليَتيم»(٣)، وأما ما ورد من أن قريشاً أطلقت على النبي ﷺ «يتيم أبي طالب» بعد بلوغه ﷺ - وذلك لما تعجبت واستبعدت من إرساله ﷺ دون أحد كبرائهم فقالوا: لم يجد الله رسولاً إلا يتيم أبي طالب، وأن يكون العراة الجُوَّع أصحابه؟ ذكره غير واحد من المفسرين(٤) في سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١٥٤/٦)، وانظر: «القاموس المحيط»: (١٥١٣)، «المعجم الوسيط»: (١٠٦٣/٢).

(٢) «بصائر ذوي التمييز»: (٣٨٠/٥).

(٣) «تهذيب اللغة»: (٣٣٩/١٤)، «لسان العرب»: (٦٤٥/١٢-٦٤٦)، وانظر: «مفردات ألفاظ القرآن»: (٨٨٩).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (١٠٩/١٤)، «معالم التنزيل»: (٣٤٣/٢)، «الكشاف»: (٣١٣/٢)، «المحرر الوجيز»: (١٠٢/٣)، «تفسير القرطبي»: (٣٠٦/٨)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٨٩/٢)، «تفسير ابن كثير»: (٤٠٧/٢)، «فتح القدير»: (٤٢٤/٢).

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ ... الآية (يونس: ٢) ـ فقد وجهه الزمخشري بقوله: إن ذلك «إما على القياس، وإما حكايةً للحال التي كان عليها صغيراً ناشئاً في حجر عمه توضيعاً له ﷺ»[(١)].

الآية التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة في:

- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ (الضحى: ٦).

ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآية:

❖ في معناها:

قال الطبري: «وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾: يقول تعالى ذكره معددا على نبيه محمد ﷺ نعمه عنده، ومذكره آلاءه قبله: (ألم يجدك) يا محمد ربك (يتيما فآوى) يقول: فجعل لك مأوى تأوي إليه، ومنزلا تنزله»[(٢)].

وعدد تعالى عليه هذه النعم لتطييب نفسه، وتقوية رجاءه ﷺ، قال ابن جزيء: «عدد الله نعمه عليه فيما مضى من عمره ليقيس عليه ما يستقبل فتطيب نفسه ويقوى رجاءه»[(٣)].

- **في قوله تعالى: ﴿يَجِدْكَ﴾:**

وجد هنا بمعنى عَلِمَ، أي: ألم تكن يتيماً فآواك[(٤)]؟

---

(١) «الكشاف»: (١/ ٢٤٢).

(٢) «جامع البيان»: (٣٠/ ٢٣٢).

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٤/ ٢٠٤).

(٤) انظر: «الكشاف»: (٤/ ٧٧٢)، «تفسير البيضاوي»: (٥/ ٥٠٢)، «تفسير النسفي»: (٤/ ٣٤٥)، =

قال ابن جزيء: «﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾: ووجد في هذه المواضع تتعدى إلى مفعولين وهي بمعنى علم فالمعنى ألم تكن يتيما فآواك»[1].

- **في قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا﴾:**

اختلف المفسرون في تفسير يتم النبي ﷺ على ثلاثة أقوال:

١ – المراد به: يتمه بفقد أبويه[2] كليهما[3]، قال به عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه[4].

٢ – أن المراد به: يتمه بفقد أبيه[5].

٣ – أن المراد به: يتمه بفقد أبويه، وجده[6]، وعمه[7] أيضاً[8].

وعند تأمل الأقوال أعلاه، يلاحظ أن الثاني منها، وهو القول بيتمه ﷺ من أبيه، هو الأصلق بالمعنى اللغوي، ولكنها جميعاً لا تعارض بينها؛ حيث يتم النبي ﷺ

=«التسهيل لعلوم التنزيل»: (٤/٢٠٤)، «البحر المحيط»: (٨/٤٨١).

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٤/٢٠).

(٢) وفي موت أبيه ﷺ أقوال، الأشهر والأثبت منها: أنه توفي والنبي ﷺ حملٌ في بطن أمه لستة أشهر، انظر: «تاريخ الإسلام»: (جزء السيرة/٥٠) قال الذهبي: «وهو الصحيح».

(٣) حيث ماتت أمه ﷺ وهو ابن ست سنين، وقيل أربع سنين، انظر: «تاريخ الإسلام»: (جزء السيرة/٥٠).

(٤) «الدر المنثور»: (٨/٥٤٤)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٩).

(٥) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٢٩٣)، «الكشاف»: (٤/٧٧٢)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/٩٦)، «فتح القدير»: (٥/٤٥٨)، «التحرير والتنوير»: (٣٠/٣٩٩).

(٦) حيث مات جده ﷺ وهو ابن ثمان سنين، انظر: «تاريخ الإسلام»: (جزء السيرة/٥١).

(٧) حيث توفي عمه أبو طالب قبل الهجرة، انظر: «تاريخ الإسلام»: (جزء السيرة/٥١)

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٢٤)، «تفسير أبي السعود»: (٩/١٧٠)، «تيسير الكريم الرحمن»: (٩٢٨).

من أمه وأبيه وجده، من حيث فقدانه للرعاية، وكل ذلك قبل البلوغ، وأما تيتمه من عمه فعلى اعتبار أنه كان مظنة للتضييع كاليتيم - حيث يفقد الرعاية - إذ فقد ﷺ حينها الحماية البشرية ﷺ، فالقول الثالث هو الذي يجمعها، إذ آواه الله تعالى من كل ذلك.

قال ابن كثير: «﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾: وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، وقيل بعد أن ولد عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به ﷺ»[1].

- **في قوله تعالى: ﴿فَآوَىٰ﴾:**

اللفظ مشتق[2]:

- إما من: (أواه)، بمعنى: **(آواه)**.

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٢٤).

(٢) انظر: «الكشف والبيان» للثعلبي: (١٠/٢٢٦)، «الكشاف»: (٤/٢١٩)، «المحرر الوجيز»: (٨/٦٤٠)، «التفسير الكبير» للرازي: (٣١/٢١٥)، «البحر المحيط»: (٨/٤٨٦)، «الدر المصون»: (١١/٣٩).

- أو من: (أوى له)، بمعنى: **(رحمه)**.

وكلاهما فيه معنى الرحمة صراحةً أو ضمناً.

والمراد به يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعنى اليُتْم على ما سبق بيانه **من أن المراد بيتمه ﷺ يتمه بفقد أبيه، أو أبيه وأمه، أو أبويه وجده وعمه جميعاً، فالمعنى على وجهين:**

أ/ أي: فآواك الله إلى عمك فأحسن تربيتك[1].

ب/ أي: جعل لك مأوى إلى نفسك، وأغناك عن كفالة أبي طالب[2].

وكلاهما متحققان في إيواء الله تعالى لنبيه ﷺ.

ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

آيات الضحى الثلاث آخذٌ بعضها بحجزة بعض، لذا سأرجئ دراسة الأسلوب في نهاية دراسة هذه الآيات الثلاث إن شاء الله تعالى.

رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

أ/ هذا النبي العظيم عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم، إنه النبي اليتيم، وأي يتم أعظم من يتم يتلاحق فيه الأبوان؟ مات أبوه ﷺ وهو في بطن أمه، فلم تلتق عيناهما البتة، ولم يشعر بلمسة الأب الحاني ولو للحظة، بل ويزور قبره وهو في السادسة من عمره[3]

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٢٩٣)، «تفسير السمعاني»: (٦/٢٤٤)، «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٩)، «زاد المسير»: (٩/١٥٨)، «تفسير النسفي»: (٤/٣٤٥).

(٢) «النكت والعيون»: (٦/٢٩٣)، «زاد المسير»: (٩/١٥٨)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/٩٦).

(٣) انظر: «سبل الهدى والرشاد»: (٢/١٢٠).

فينطبع في قلبه معنى اليتم عياناً بياناً بعد أن كان طفلاً لاهياً عن يتمه، وإن كان يعلم بموت أبيه، وأنه ذهب ولن يعود.

ولكن يبقى سنا الأمل، يشع من قلب الأم المعطاء، والذي بفطرته يتدفق حناناً على هذا اليتيم، وإن كان يخفي مرارة فقد الزوج الحبيب، لترتسم البسمة على وجه هذا اليتيم العظيم، ويشاء الله الحكيم العليم، وأن يَسلب عنه هذا القلب الرحيم، لتتجرع طفولته البريئة مرارة اليتم الثاني في حياته.

ولكن يومض وميضُ الأمل من جديد، من عيني جده الشيخ الكبير، وينتقل إليه النبي اليتيم، ليغدق عليه الحب والشفقة من قلب رحيم.

وتتوالى حكم الله تعالى ـ وهو بنبيه ﷺ أرحم من أي رحيم ـ ويُيَتَّمُ حبيبنا ﷺ اليتم الثالث في حياة النبي العظيم، ليجد نفسه وحيداً في دائرة اليُتم الأليم، ولكن أمام عم رحيم، فقير، وذي عيال كثير، كل منهم يتشوف إلى حظه من العناية والرعاية والتعليم، فتولاه الله تعالى برعايته، وتربيته، وتأديبه، فكان اليتيم الأديب، القانع النزيه، ذا الخلق الكريم، فاحتضنه العم حتى شبَّ ونشأ في حضنٍ حميم، فتحولت هذه الحضانة إلى حماية منيعة بفضل الرحمن الرحيم.

مسألة: ما الحكمة في أن النبي ﷺ كان يتيماً؟

١ – يُتْمُ محمد ﷺ نعمة عظمى في طي محنة عظيمة، حيث أراد الله بحكمته أن ينشأ رسوله ﷺ يتيماً، ليتولاه الله بعنايته وحده، وليكون أدبه وخلقه مع يتمه، دليلاً على أن الله تعالى تولى رعايته وتأديبه، فآواه وسخر له جده وعمه لتهيئة الجانب المادي، بينما كانت التربية النفسية، والخلقية، والفكرية تعهداً ربانياً، ورعاية إلهية، فلا يتلقى أو يتلقن من مفاهيم الجاهلية وأعرافها شيئاً.

٢ – نشأ ﷺ بعيداً عن الذراع التي تمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة، فيلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني.

٣ – كانت المصائب التي أصابت النبي ﷺ منذ طفولته ـ كموت أمه، ثم جده بعد أن حرم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرة بعد مرة ـ كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب مرهف الشعور، فالأحزان ترهف النفس وتخلصها من أدران القسوة والكبر والغرور، وتجعلها أكثر رقة وتواضعاً، وهذه الرقة والعطف والحنان الذي حرم منه ﷺ أعطاه بدوره لغيره من الضعفاء كزيد رضي الله عنه وغيره، وخص به الأيتام ـ كما سيأتي ـ بل وأعطاه للأمة كلها فكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وكادت نفسه الشريفة ﷺ أن تذهب حسرات شفقة على أمته أن لا يؤمنوا.

٤ – كان من لوازم يتمه ﷺ أن يتنقل بين البيوت، لينشأ ﷺ متعلماً الاعتماد على النفس، متحملاً للمسؤولية، قوي الإرادة، ماضي العزيمة، وكل هذا وغيره إنما يحتاجه كل من اختاره الله نبياً مرسلاً.

٥ – ليتأسى به ﷺ كل من فقد والديه أو أحدهما، وهو صغير.

٦ – حتى لا يكون لأبويه أي أثر في دعوته ﷺ.

٧ – كان يتمه ﷺ هو سبب إباء المراضع إياه، حتى حليمة السعدية، ولكنها كرهت أن ترجع من بين صويحباتها بدون رضيع، فأخذته، فبارك الله لهم فيه وأغناهم به ﷺ، وها هي تروي القصة بنفسها فتقول: «فوالله ما علمتُ منا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أب

الصبي، فكنا نقول: **يتيم، ما عسى أن تصنع أمه؟** فكلنا نكرهه لذلك، فو الله ما بقيت من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم أجد غيره قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لانطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى أن يجعل الله لنا فيه بركة»[1].

٨ – لما عايش النبي ﷺ طفولته اليتيمة، وتجرعَ كأس اليُتمِ مرة بعد مرة كان أعلم الناس بضعف اليتامى وحاجتهم **فحث ورغب في كفالة الأيتام** كما سيأتي بعد قليل[2].

٩ – ذكر الرازي جملة من الحِكَمِ، سماها وجوهاً فقال: «فيه وجوه:

أحدها: أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع فقيل له في ذلك، فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجياع.

وثانيها: ليكون اليتيم مشاركاً له في الاسم فيكرم لأجل ذلك...

وثالثها: أن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما، فسلب عنه الوالدان حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله، فيصير في طفوليته متشبهاً بإبراهيم عليه السلام في قوله: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»[3] وكجواب مريم: ﴿**أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ**﴾ (آل عمران: ٣٧).

ورابعها: أن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر... فاختار تعالى له اليُتم؛ ليتأمل كل أحد في أحواله ثم لا يجدوا عليه عيباً فيتفقون على نزاهته، فإذا اختاره

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام: (١/١٨٨)، «السيرة الحلبية»: (١/١٤٧).

(٢) هذه النقاط بتصرف شديد من: «السيرة النبوية» للدكتور: علي الصلابي: (١/٧٦ ـ ٧٧)، «محمد رسول الله ﷺ»: (١/١٥٢).

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل»: (٥/٣٢٧).

الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعناً.

وخامسها: جعله يتيماً ليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء لأن الذي له أب فإن أباه يسعى في تعليمه وتأديبه.

وسادسها: أن اليُتم والفقر[1] نقص في حق الخلق، فلما صار محمد ﷺ مع هذين الوصفين أكرم الخلق كان ذلك قلباً للعادة فكان من جنس المعجزات»[2].

خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- كثيراً ما تأتي المنحة من رحم المحنة، فربما يكون فقد الوالدين أو أحدهما سببا دافعا للتميز والتفوق؛ فما أكثر الصور المشرقة لأيتام تميزوا وبرزوا وكانت لهم بصماتهم الواضحة على المجتمع من حولهم - وفي أزمان متفرقة - ويأتي على رأس هؤلاء الأيتام العظام:

❖ سيد الخلق وإمام الحق رسولنا الكريم ﷺ.

❖ مريم عليها السلام، والتي كفلها نبي الله زكريا عليه السلام، وقال عنها الرسول ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[3].

❖ إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، وأصله من

---

(١) سيأتي تحرير مسألة فقره وغناه ﷺ في موضعها إن شاء الله تعالى، انظر: من ص (٦٦ – ٧٣).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٢١٩/٣١).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة رضي الله عنها، (١٣٧٤/٣/ح ٣٥٥٨)، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، (١٨٨٦/٤/ح ٢٤٣١).

البصرة، ولد عام ١٦٤هـ في بغداد، وتوفي والده قبل مولده؛ فنشأ يتيما، وتولَّت رعايته أمه، وحرصت على تربيته كأحسن ما تكون التربية، فحفظ القرآن الكريم، وانكبّ على طلب الحديث، وبزَّ أقرانه في الحديث والفقه وغيرهما حتى صار إمام أهل السنة[1]، وغيرهم كثير.

ولعل الحكمة في ذلك أن الطفل منذ صغره إذا افتقد أحد أبويه أو كليهما، فإنه سيشعر بأنه فقد القدوة فسيعوِّض ذلك بأن يكون هو القدوة لغيره.

❖ كما نجد أن القرآن الكريم ذكر اليُتمَ في اثنتين وعشرين آية، كلها تدعو إلى المحافظة على مال اليتيم، وإكرامه، وإطعامه، وإيواءه، والإحسان إليه، والصدقة عليه، وإصلاح أمره، ومخالطة اليتامى، وغير ذلك مما يدل على اهتمام الإسلام بهذه الفئة.

❖ ولعل الحكمة من أن الله ﷻ قد وصى وأكد على ضرورة مخالطة اليتامى وإيواءهم هو أن ينشأ اليتيم بين أناس يتعامل معهم بشكل طبيعي ويشعر بحياة طبيعية لا تختلف عن أقرانه الذين يراهم، فينشأ الطفل متوازناً نفسياً ومتوافقاً مع نفسه ومع المجتمع الذي يعيش فيه.

ولكن على النقيض من ذلك إن وضع هؤلاء الأطفال الأيتام في مكان ويُعزلون عن المجتمع، فهذا يؤدي إلى شعورهم بأنهم مختلفون عن بقية المجتمع، وهذا قد يولد لديهم شعور بالكراهية والحقد على المجتمع، ويشعرون أنهم غير منتمون له، وهذا بدوره يؤدي إلى سلوكيات غير محمودة.

❖ إنَّ حثَّ الإسلامِ على الاهتمام باليتامى، وبإيوائهم في المقام الأول ـ كما امتن الله تعالى على نبيه ﷺ بذلك ـ لهو الذي يحتاج إليه اليتيم، فاليتيم بلا مأوى سيصبح متسولاً

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء»: (٩٢١/ترجمة رقم: ٦٦٥).

تتلقفه أرصفة الشوارع، ومنعطفات الأزقة، بلا مخدع يؤويه، ولا رقيب ينتظره، فإذا به عضو فاسد تخسره الأمة، ويكون عالة ووبالاً عليها وعلى أبناءها، وعندها ندرك أن الإسلام قدم اليتيم للمجتمع في صورة إنسانية رائعة، ولم يعتبرهم من بقايا المجتمع، والحمد لله.

❖ ومن التأسي بالنبي ﷺ في ضوء هذه الصفة هو في معاملته ﷺ للأيتام، وفي كفالتهم:

ومن الصحيح في ذلك: ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بإصبعه السبابة والوسطى»[1].

❖ ❖ ❖

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً، (٥/٢٢٣٧/ح ٥٦٥٩).